التفسيرات الإسلامية لنشأة الدولة

لكن على العكس من ذلك فقد كانت هناك قوة عالمية صاعدة في منطقة شبه الجزيرة العربية ثم سرعان ما انتشرت في كافة دول الشرق الأوسط، إنها الدولة الإسلامية ومؤسسها وقائدها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، إذن في الوقت الذي كانت فيه أوربا تسبح في ظلمات الجهل والإقطاع كانت الدولة الإسلامية تبني مجدها الذي مكنها فيما بعد من السيطرة على مساحات ضخمة وصلت إلى تخوم الصين في الشرق ووصلت إلى مشارف فرنسا في الغرب، ولم يبقى إلاّ القارة الأمريكية التي لم تكتشف في تلك المرحلة.

لقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وبفضل من الله عز وجل عليهم أن يمهدوا لأركان دولة عالمية عظيمة ركيزتاها الأساسيتان القرآن والسنة، وقد قال الشيخ ابن تيمية قدّس الله روحه، في مؤلفه **الخلافة والملك** أن خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تصير ملكا وقد استند إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم " تكون الخلافة ثلاثين عاما ثم يكون الملك " " تكون الخلافة ثلاثين سنة ثم تصير ملكا" وقد أضاف بأنّ الخليفة أو السلطان وكيفية كونه ظل الله في الأرض، فبعد أن ساق الإمام ابن تيمية الآيات القرآنية التي تؤكد أن الله قد جعل في الأرض خليفة ينتقل إلى نقطة أن السلطان ظل الله في الأرض، فالسلطان هو أقوى الأسباب التي بها يصلح الله أمور خلقه وعباده، وإذا صلح ذو السلطان صلحت أمور الناس وإذا فسد فسدت بحسب فساده، ولا تفسد من كل وجه، بل لابد من مصالح؛ إذ هو ظل الله لكن الظل تارة يكون كاملا مانعا من جميع الأذى وتارة لا يمنع إلاّ بعض الأذى، وأما إذا عدم الظل فسد الأمر، كعدم سر الربوبية التي بها قيام الأمة الإنسانية والله تعالى أعلم.[1]

والدليل الواقعي على أنهما ركيزتان أن المسلمين بمجرد تخليهما عن تلك التعاليم واتجاههم إلى الفلسفة اليونانية والتقليد للنماذج الغربية والإفرنجية[2] سقطت الدولة

---

[1] . أبو العباس أحمد ابن تيمية، الخلافة والملك، تحقيق حماد سلامة، مراجعة محمد عويضة، الرسالة 4، ط2، (عمان: مكتبة المنار الزرقاء 1994)، ص 54.

[2] . **الإفرنج** تعني جيل من الناس يسكنون أوربا. انظر **المعجم الوسيط**، مرجع سبق ذكره، ص 45.

العظيمة التي عمرت ردحا من الزمن يحكي عن قوة وعظمة رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولعل التاريخ الإسلامي مليء بالحوادث والمفاخر التي لا تنسى.[3]

وهذا الأمر حقيقة ليس بالعارض فقد عرفته العديد من الحضارات السالفة خاصة الدولة الإسلامية في عهد الخلافة العباسية لاسيما في قرنها الأخيرين أين صار الخليفة دمية في يد مجموعة من المستشارين الدخلاء فعاثوا في الأرض فسادا وقد كان لهم الدور الكبير في إسقاط مجد الخلافة الإسلامية وملك بني العباس.

وقد لا يسع المجال للسرد التاريخي فالقضية التاريخية واضحة جدا، بل إنها أوضح من شمس النهار، فالدولة الإسلامية التي قامت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لم تقم إلاّ على مبادئ الدين الحنيف، ولما دخلته الشوائب وكثرت التأويلات والتحريفات والفتاوى الخاطئة، بدأ مجد هذه الحضارة العظيمة يتهاوى يوما بعد يوم، وبدأت بوادر الفرقة والتشرذم والصراعات والحروب المادية تتفاقم إلاّ غاية أن تمكنت منها تلك القوى الأجنبية الدخيلة وأسقطتها في براثن الاستعمار وأوحال التبعية.

لقد عالج الكثير من المستشرقين الغربيين هذه القضية، بل إن الحقيقة التي لا يمكن إخفائها أن المستشرقين الغربيين قد كان لهم الفضل الكبير في دراسة الخلافة والقوة الإسلامية في أوجها، لاسيما في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد توصلوا إلى فكرة أساسية وهي أن هذا الدين هو الذي جعل المسلمين أقوياء وهو الذي رفعهم فوق جميع شعوب العالم، ولذلك فإنّ أفضل طريقة لإضعافهم وتحطيم مجدهم هو اللعب على وتر الدين وبث الشبه فيه وإحياء المتشابهات منه، وقد عملوا حقيقة على ترجمة وتفسير كل مصادر المسلمين الأصلية بداية بتفسير القرآن بصحيح البخاري ومسلم، بل وقد مكنهم تفقههم في أمور الدين الإسلامي إلى درجة أنهم أصبحوا مصادر يستشهد بها العلماء والكتاب المسلمين أنفسهم.

---

[3] . ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص 164، 165. ولمزيد الاطلاع انظر الفصل السابع والعشرون من المقدمة. بحيث أكد العلامة ابن خلدون على أنّ العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصيغة دينية من نبوءة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وما عدا ذلك فهو من النادر.

ولكن كما يقال في الأمثال العربية الحق ما شهدت به الأعداء، ولهذا نجد أن المستشرقين متفقون على أن العرب ناقص الإسلام يساوي الصفر، وبالتالي فهم فهموا جيدا ما كان يعنيه ابن خلدون بقوله أنّ العرب لا يحصل لهم ملك إلاّ بنبوءة أو ولاية دينية.

حقا لقد تمكنت الخلافة الإسلامية إلى غاية منتصف الحكم العباسي، من التربع على عرش التفاعلات الدولية، والسيطرة والتفوق على أعظم الإمبراطوريات في العالم آنذاك وهما الإمبراطورية الفارسية و الرومانية، هذه الإمبراطورية التي ظهرت على أنقاضها نظام الكنيسة والإقطاع وتحالفهما من أجل مصالحهما الشخصية، وطبعا في هذا الوقت كانت الحضارة الإسلامية في أوج تطورها وازدهارها، وقد كانت هناك تطورات في شتى المجالات ما عدا طبعا الجانب الروحي الذي كان في تنازل مستمر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مرحلة بمرحلة بداية بالخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين، ولعل أكبر حجة يمكن توظيفها في هذا المقام حديث الصحابة الذين قالوا: للتابعين إنكم لتذنبون ذنوبا كنا نعدها على عهد رسول الله من الكبائر.[4]

بعد كل تلك القوة جاءت نهاية الحكم العباسي على يد التتار والمغول لتبين مدى ضعف الدولة وتفككها وفرقة كلمتها واتساع خلافاتها، فكانت مجزأة إلى دويلات في المشرق والمغرب والأندلس والتي كانت متناحرة فيما بينها، إلى غاية مجيء الدولة العثمانية التي استطاعت أن تبعث الحضارة الإسلامية من جديد.[5]

وللإشارة على قوة هذه الدويلات في عهد الخلافة العثمانية فقد كانت الجزائر على سبيل المثال لا الحصر قوة لا يشق لها غبار في البحر الأبيض المتوسط، وإن صفحات التاريخ مليئة بالمعارك والحروب والانتصارات التي حققها الأسطول الجزائري، الذي كانت كل أساطيل

---

[4] . حديث للرسول صلى الله عليه وسلم

[5] . نظام بركات، مرجع سبق ذكره، ص 153، 154.

العالم لا تعبر هذا البحر إلاّ عبر استشارة الحكام الجزائريين وطلب الإذن بذلك حتى أمريكا ذاتها.[6]

[6] . للاطلاع أكثر انظر: إسماعيل العربي، **فصول في العلاقات الدولية**، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1990، ص 11 إلى 41.